

خطوط الصراع القادم في الشرق الأوسط دراسة حالة العراق وسوريا

حسام محمد بوتاني

باحث سياسي

ملخص

تناقش هذه الورقة خطوط الصراع القادم في الشرق الأوسط، منطلقة من أن الحالة الصراعية تمثل امتداداً لتفاعل متناقضات المنطقة المبنية على أساس (هوياتي) مخترع، جعلها عرضة دوماً للهشاشة والتفاعل، مع إخفاق في شرعية نظمه السياسية، وتمثل حالتا العراق وسوريا أبرز الحالات بين دول المنطقة، وأكثرها تعبيراً عن هذا التفاعل، إذ سرعان ما تداعت منظومة الدولة، لتحل محلها فعلياً سلطة الجماعات العرقية والطائفية، حتى غدت إعادة تشكيل خرائط البلدين على أساس إثني أحد المسلمات المرتقبة. وترى الورقة أن صراع الجماعات الإثنية المختلفة سيؤد خطوفاً جديدة للصراع، لا تشمل العراق وسوريا فحسب، بل تمتد لتشمل المنطقة كلها.

Next Lines of Conflict in the Middle East Case Study: Iraq and Syria

Hossam Mohammed Botani

ABSTRACT

The current conflicting situation in the Middle East is an extension of the interaction between the regional contradictions - based on an artificial identity that makes it always fragile- with the failure of the regional regimes' legitimacy and national integration of different components. As such these events prevent the national integration of the region's various actors. Iraq and Syria are the most prominent cases among countries in the region, and the main representatives of such interaction, as state system in both of them quickly has fallen apart and is replaced virtually by the authority of ethnic and sectarian groups. Thus, the reconfiguration of the two countries' political maps on ethnic basis has become a prospective assumption.

The paper attempts to address areas and lines that will represent the new lines of conflict and focuses on the core of conflict in the region, namely Iraq and Syria. Moreover it discusses the implications on both regional and global security.

رؤية تركية

2015 - 15
142 - 129

الشكل رقم (1): التغيير الديموغرافي في محافظة كركوك



م/ الشكل من إعداد الباحث

في إعادة تشكيلها، فالشرق الأوسط الحالي صُمم بطريقة جعلته هشا وقابلاً للاختراق، ورسمت حدوده بطريقة جعلت عدم الانسجام بين مكوناته السمة التي تحكمه، وإذا كان مؤكداً أن الإقليم يشهد مرحلة تحول تاريخية تجعل من شكله الحالي غير قابل للاستمرار؛ لأنه سيمثل بؤرة توتر تقوض الاستقرار العالمي برمته، فإن من المؤكد أن الحدود القادمة ستكون حدوداً مرسومة على أسس إثنية، سواء كان ذلك بـ(الفدرلة) في المرحلة الأولى، أو بالتقسيم النهائي للمنطقة، أو حتى إعادة صياغة نظام إقليمي فرعي جديد.

كما أن الحالة الصراعية التي تحكم المنطقة منذ عقود وصلت إلى مرحلة متقدمة جداً بعد سقوط الموصل بيد تنظيم داعش، وتمتده في العراق وسوريا، إذ إن ظهور التنظيم أفرز واقعاً جديداً في المنطقة، فالتغيير الإثني تصاعد مع ظهور التنظيم ليتصدر المتغيرات الأخرى

سعت دول الشرق الأوسط إلى الحفاظ على خرائطها الناشئة منذ ولادتها في عام 1916، إلا أن سعيها ظل مرتبكاً وغير مستقر، فحدودها وإن رُسخت إلا أنها بنيت على أساس هوياتي مخترع، تزوج ذلك مع خلل في شرعية نظمها السياسية وإخفاق الاندماج الاجتماعي، وكان دخول تنظيم داعش مدينة الموصل وتمتده في العراق وسوريا، بمثابة الصخرة التي تصدعت عليها تلك الخريطة، والتي تعدّ مرحلة متقدمة لتفاعل ديناميكي امتزج مع تداعي منظومة الدولة ومقوماتها، لتعطي الانطباع بأن المنطقة ستجري إعادة تشكيلها على أساس خطوط إثنية.

إن بروز التغيير الإثني (القومي-الطائفي) في معادلة الصراع الدينامي في الشرق الأوسط، بات يمثل البؤرة بين العوامل الأخرى التي تتكامل لتغذي عدم الاستقرار في جيو سياسية المنطقة، بل ويبدو إلى حد كبير أنه المتحكم من بين العوامل الأخرى

أولاً: العراق

يشكل العراق بجغرافيته القائمة، حالة فريدة للتنوع الإثني من حيث تنوعه القومي والديني والطائفي، ويرسم لوحة فسيفساء اجتماعية معقدة جعلته يمتلك عمقاً تؤثر الأحداث الداخلية فيه في الأمن الاجتماعي لسائر دول الجوار والمنطقة⁽¹⁾، وقد نشأت فيه مشكلة الانسجام الإثني مبكراً، فبعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالحكم الملكي في 1958 بوقت وجيز نشأت -تحديداً في عام 1963- المشكلة الكردية التي امتدت لتشمل عهداً أربعة رؤساء، وتعددت في عهد الرئيس الأسبق صدام حسين لتصل إلى حد ارتكاب نظامه جرائم إبادة جماعية ضد الكرد⁽²⁾، وصورت معالجته للتمرد الشيعي ضد نظامه في الجنوب العراقي بعد غزو الكويت، على أنها استهداف طائفي لهذا المكون، لتتطور المشكلة إلى حد التدويل، وفرض مناطق حظر جوي في عام 1991⁽³⁾، نتج عنها ظهور منطقة الحكم الذاتي عند خط العرض 36 المعروف بالخط الأخضر، والتي حظيت باستقلال عن المركز وبحمائية دولية، وتشكل اليوم جغرافية إقليم كردستان العراق.

المشكلة الأبرز تمثلت في نزوع نظام الرئيس الأسبق صدام حسين -بالإضافة إلى حملات الإبادة الجماعية بحق بعض المكونات- إلى السعي للتغيير الديموغرافي في حزام متنوع إثنيًا في مناطق التماس خارج خط 36 عند منطقة الحكم الذاتي للكرد، وذلك من خلال استحداث تقسيمات إدارية تستهدف تغييراً ديموغرافياً لتلك المناطق، والصلوع في

التي تحكم قواعد الصراع فيها، فحركة التنظيم كانت تسير على نحو أفرز خرائط وحركات إثنية جعلت الاتجاهات الإثنية المختلفة في المنطقة تبدو واضحة ومتصدرة للمشهد بشكل غير مسبوق، بحيث بات يؤكد أن المنطقة في المرحلة الأخيرة من إعادة تشكيلها، وعلى نحو جديد تكون محكومة بجيوإثنية ارتسمت خلال هذا الصراع.

وبالنظر إلى الخريطة يبدو أن مرحلة انتهاء تنظيم داعش لن تكون المرحلة الأخيرة للصراع في المنطقة، بل يبدو أنها ستكون أمام سيناريوهات مفتوحة من الصراع الذي سيتحكم بمستقبلها في مرحلة ما بعد داعش، فالجيوإثنية التي ترسخت بشكل كبير في مرحلة التنظيم، ستترتب عليها محاولات لإعادة تشكيل المنطقة بوصفها خياراً قابلاً لإحلال الاستقرار في المنطقة، بيد أن تطور الصراع إلى هذه المرحلة سيواجه تحدياً حقيقياً متمثلاً في تلك الخطوط المفعمة بالتنوع الإثني التي تعد خطوطاً غير حاسمة، إذ لا يمكن حسم عانديتها إلى أي كتلة إثنية، هذه الخطوط ستغذي استمرار الصراع الإثني المستقبلي حتى ما بعد التشكيل، وتقرير الجماعات الإثنية لمصيرها، ويفاقم ذلك ارتباطها بعنصر الطاقة، وهو ما سيجعل من استقرار المنطقة المنشود معرضاً باستمرار للعطب.

وبالنظر إلى خريطة الصراع الذي يتحكم في المنطقة فإن مثل هذه الخطوط ستكون ماثلة بشكل واضح في الصراع العراقي، وبأقل منه درجة في سوريا، والتي ستترك تداعيات على مستقبل المنطقة كلها.

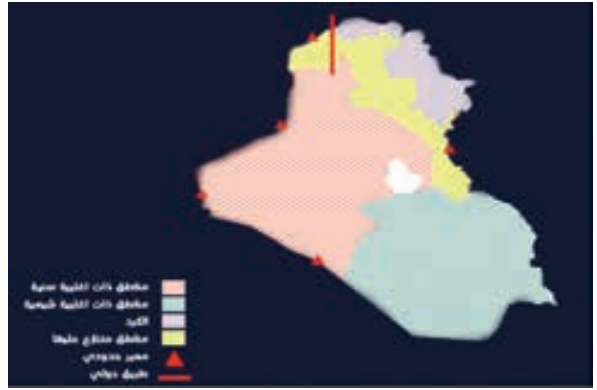
فبعد سيطرة الشيعة على أغلب مقاليد الحكم في بغداد، وانتهاجهم سياسة طائفية ظهر صراع سني - شيعي تطور إلى مرحلة الحرب الأهلية في 2007، أما المحطة الثانية فقد كانت بسقوط الموصل بيد تنظيم داعش، إذ انهارت الدولة العراقية على نحو غير مسبوق لصالح الاتجاهات الإثنية المتصارعة، وعلى نحو بدا فيه العراق مقسماً فعلياً على أساس إثني، وبدأت المحطة الأخيرة تعطي انطباعاً بأن خارطة العراق الحديث بدأت تتفكك، ولن تكون لها فرصة في الاستمرار.

بيد أن الصراع الذي أفضى إلى جموح الروح الإثنية للأطراف كافة المستندة إلى مظالم تاريخية للمكونات المختلفة - ونزوعها إلى حكم نفسها بنفسها سواء بالأقاليم الفيدرالية أم بالانفصال - سيصطدم بخطوط جيواثنية تفضي إلى صراع إثني كبير، يجعل من مقولة التقسيم مقابل الاستقرار أمراً مستبعداً.

1 - خط الصدام القومي:

يتشكل في شمال العراق خط يحمل مقومات صدام قومي قادم يُعدّ أحد أعقد الخطوط الإثنية، الذي سيمثل خط التوتر الأبرز في المنطقة، وهو الشريط المتنازع عليه بين إقليم كردستان والحكومة الاتحادية فيما عرف دستورياً "بالمناطق المتنازع عليها"، هذا الخط - كما هو واضح في الشكل رقم (2) - يمتد غرباً من قضاء سنجار مروراً بقضاءي ربيعة وزمّار وأقضية تكليف والشيخان والحمدانية في محافظة نينوى وكامل محافظة كركوك، نزولاً إلى قضاءي خانقين والمقدادية في محافظة ديالى، وانتهاء بقضاءي بدرية وجصان في محافظة واسط شرقاً. يستوعب

الشكل رقم (2): المناطق المتنازع عليها بين إقليم كردستان والحكومة الاتحادية



المصدر: الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على بعض الإحصائيات من مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية CISIS

عمليات ترحيل بعض القوميات وتوطين أخرى، مثلت أصولاً تاريخية عميقة لتلك المظالم، وأدت إلى تصدع التعايش المشترك بين مكونات ذلك الخط المتنوع إثنيًا، وهو ما سيشكل أحد خطوط التوتر لاحقًا، فإذا أخذنا محافظة كركوك مثالاً نجد من خلال الشكل رقم (1) أن نسبة الكرد تقلصت لصالح حساب القوميات الأخرى، نتيجة لما عرف "بسياسة التعريب" من 48% في إحصاء 1957 إلى 38% في إحصاء 1977 لتنهبط إلى 2% في إحصاء 1997.⁽⁴⁾

إلا أن مشكلة الإثنيات في العراق شهدت محطتين مثلتا نقطة تحول في مسار التفاعل الإثني، ورسمت خطاً جديداً للصراع الإثني جديد في البلد، تمثلت الأولى في الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 والإطاحة بنظام صدام حسين، فقد كانت الهوية الوطنية لهذا البلد تتمزق، وظهر وعي إثني كبير للمكونات المختلفة، فمع أن الصراع العربي - الكردي انتهى إلا أن السلام بين الكرد والدولة العراقية بقي هشاً ومعرضاً للانهايار.

الشكل رقم (3): حقول النفط في المناطق المتنازع عليها



الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على: Anthony H. Cordesman & Sam Khazai, Iraq in crisis. Center for Strategic and International Studies CSIS, 2014, p16.

منافذ محدودة من محافظة الأنبار على الأردن وسوريا والسعودية.

الضلع الثالث في أهمية هذا الحزام هو ارتباطه ببعده الطاقة، وهو ما أضفى عليه أهمية جيوسياسية فريدة، فبالإضافة إلى خصوبة تربته وما يشكله من خطوط طرق برية، فإنه يحتوي على احتياطي نفطي هائل، فمحافظة كركوك وحدها تمتلك 13 مليار برميل نفط من الاحتياطي المؤكد، وتنتج 500 ألف برميل بشكل يومي⁽⁸⁾، إلا أن ما يزيد المشكلة تعقيداً -بالنظر إلى الشكل رقم (3)- ويبحث على الدهشة هو أن جغرافية إقليم كردستان وجغرافية العرب السنة تعد فقيرة بمصادر النفط وحقوله، في الوقت الذي تتركز فيه مصادر النفط الغنية في هذا الحزام، وهذا يعني أن أي طرف يتنازل عن هذا الحزام يعني تنازله عن سلة خبزه، وحكمه على جغرافيته أن تكون فقيرة، ومجردة من الموارد اللازمة للتنمية، مثل هذا الإدراك يجعل من هذا الحزام معقداً ومتشابكاً، ويحمل إمكانية

هذا الخط 5٪، 18 من مساحة العراق، إذ يشمل 34٪ من مساحة محافظة نينوى، ومحافظة كركوك كاملة، و 51،6٪ من محافظة ديالى، و 21٪ من محافظة واسط⁽⁵⁾.

يحمل هذا الحزام عوامل صراع مزدوج بين صراع اتحادي- كردي، وصراع عربي سني- كردي، لما يحتويه هذا الشريط من مقومات لقيام مثل هذا الصراع، فهذا الحزام الجيوإثني يعد من الحُزْم الغنية في العراق عمومًا، وعلى وجه التحديد أغنى بقعة جغرافية للعرب السنة والكردي، إذ يمتاز بخصوبة أراضيه الزراعية، حيث تتبوأ مناطق المرتبة الأولى في إنتاج القمح والشعير، ويشكل إنتاج نينوى -التي أغلب أراضيه المنتجة في الشريط المتنازع عليه- 26٪ من إنتاج العراق من القمح والشعير، تليها محافظة كركوك بنسبة 13٪، وديالى بنسبة 12٪ من عموم إنتاج العراق⁽⁶⁾، بالإضافة إلى خصوبة أراضيه، فإنه يجوي ثروة مائية كبيرة، إذ يتضمن سدّ الموصل أكبر سدود العراق، ورابع أكبر سد في الشرق الأوسط، تجعله يتحكم بمصير المياه في بادية الجزيرة وكامل منسوب نهر دجلة⁽⁷⁾.

الميزة الأخرى لهذا الحزام تتعلق بطرق المرور والاتصال الدولية، وهو ما يضفي عليه أهمية إستراتيجية كبيرة، فكما هو مبين في الشكل رقم (2) يتصل هذا الشريط بكل من تركيا وسوريا وإيران، لذلك يشكل أهمية فائقة للعرب السنة بالدرجة الأساس، إذ بدونه سينقطع اتصال جغرافيتهم مع تلك الدول، ولن تبقى لهم منافذ دولية إلا

قوات البيشمركة التابعة لإقليم كردستان ملء الفراغ الناجم عن انهيار قطعات القوات الاتحادية في تلك المناطق، وتحدث الرئيس مسعود البارزاني مراراً عن انتهاء المادة 140، وما يعرف بالمناطق المتنازع عليها، مشيراً إلى حسم عائدتها للإقليم، إلا أن هجوم تنظيم داعش على تلك المناطق أعادها إلى وضعها بوصفها متنازعاً عليها، وبالنظر إلى أن تضحية البيشمركة بما يزيد عن ألف قتيل وآلاف الجرحى في معاركها مع تنظيم داعش كانت دفاعاً عن تلك المناطق لا عن حدود الإقليم عند خط 36 وإلى حديث البارزاني أن الحدود رُسمت بالدم - تنبئ أهمية هذه المناطق في المدرك الكردي، وإمكانية نشوب صراع (صفري) عليها بين الأطراف المختلفة⁽¹¹⁾.

2- خط الصدام الطائفي:

الصراع الطائفي المتصاعد في العراق بعد 2003 معرض للتفاقم، فإذا تحقق استقلال الجماعات الإثنية، وهو الحاصل فعلياً بعد ظهور تنظيم داعش، واستمر الوضع على هذه الوتيرة فإن حُزماً طائفية ستتشكل لتمثل أساساً مستقبلياً لاستدامة الصراع الطائفي فيه، فإلى الشرق منه تعد محافظة ديالى مركزاً للصراع القومي والصراع الطائفي على حد سواء، فبالإضافة إلى مطالب الكرد بـ 51٪ من المحافظة، يسعى الشيعة إلى تغيير ديموغرافي لهذه المحافظة بالرغم من كونهم ليسوا الأغلبية فيها، وبعدها السنة محافظة عربية سنية أصيلة، وتأتي أهمية ديالى من أهمية العاصمة بغداد، إذ تحتضنها من شملها الشرقي وحتى جنوبها الغربي، وكما هو مبين

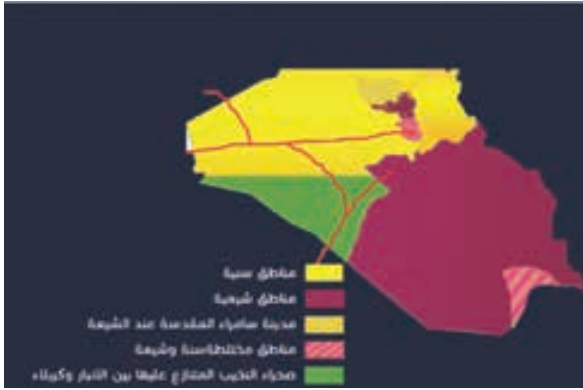
يبدو أن مرحلة انتهاء تنظيم داعش لن تكون المرحلة الأخيرة للصراع في المنطقة، بل يبدو أنها ستكون أمام سيناريوهات مفتوحة من الصراع الذي سيتحكم بمستقبلها في مرحلة ما بعد داعش، فالجيوإثنية التي ترسخت بشكل كبير في مرحلة التنظيم ستترتب عليها محاولات لإعادة تشكيل المنطقة بوصفها خياراً قابلاً لإحلال الاستقرار فيها

دخول الأطراف في صراع (صفري) بسبب هذا الحزام.

وما يزيد المشكلة تعقيداً أن هذا الحزام يمتاز بالتنوع الإثني الكبير، فبالإضافة إلى العرب والكرد اللذين يشكلان المكونين الرئيسيين فيه يتضمن أيضاً أقليات الإيزيديين والمسيحيين والشبك والتركمان، وهو ما يجعل أمر حسم عائدته إلى أي طرف أمراً صعباً، مع انعدام وجود كتلة إثنية قادرة على الحسم⁽⁹⁾. وللتدليل على حجم التعقيد فيه فإنه على الرغم من أن معظم مناطقه تحت سيطرة إقليم كردستان المباشرة منذ اثني عشر عاماً، وعلى الرغم من أن الدستور العراقي الدائم لسنة 2005 نص في مادته الـ 140 على إيجاد تسوية نهائية لوضع هذه المناطق باستفتاء أهلها في 31 كانون الأول من عام 2007 إلا أن ذلك لم يحصل مع مرور ثماني سنوات على فوات الموعد النهائي لتسوية وضع تلك المناطق دستورياً، وهو ما يشير إلى أن حل وضع هذا الحزام يبدو مستبعداً بالطرق السلمية والدستورية، ويحمل في طياته متاهة بالغة التعقيد⁽¹⁰⁾.

كان التفاعل واضحاً مع ذلك الحزام بعد سقوط الموصل بيد داعش، إذ تقدمت

الشكل رقم (4): خطوط التوتر الطائفية المقبلة في العراق



الخريطة من إعداد الباحث بالاعتماد على بيانات خاصة

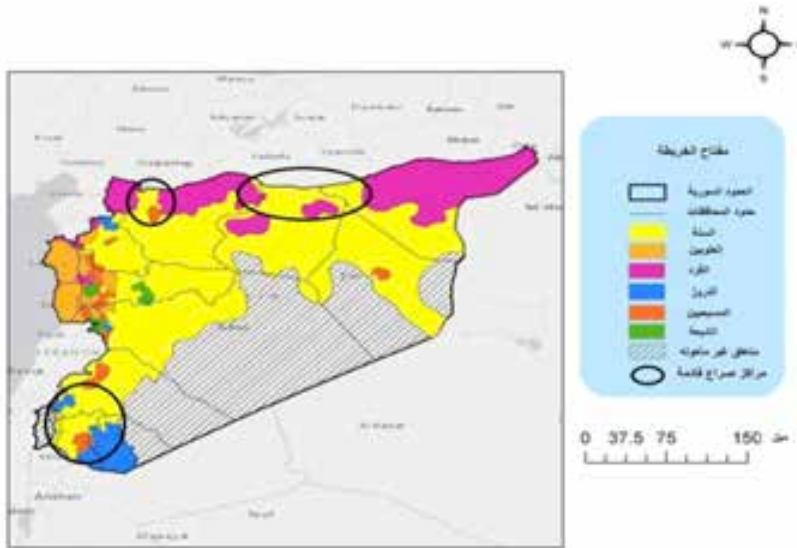
سامراء ستكون بؤرة تغذي الصراع الطائفي المستقبلي بحجة حماية المقدسات⁽¹³⁾.

إلى الجنوب ترسم خطوط توتر مستقبلية أخرى، من ذلك قضاء النخيب الذي أدرج منطقة متنازع عليها بين كربلاء والأنبار بالرغم من عائدته التاريخية والجغرافية للأنبار، أهمية هذا القضاء هو أنه يمثل منطقة عبور مهمّة، إذ يتصل بالملكة العربية السعودية، ويحتوي منفذ العراق البري إليها، ويتصل بالأردن، لذا فإن حصول أي من الطرفين على هذا القضاء يعني عزل الطرف الآخر عن الاتصال بالأردن والسعودية، كما أنه يمثل ظهيراً لمحافظة كربلاء المقدّسة لدى الشيعة، وبحصولهم عليه سيؤدي إلى تأمين هذه المحافظة التي تبدو مكشوفة أمام هذا القضاء، ومن ثمّ فإن هذه المنطقة ستعد إستراتيجية للطرفين، لكونها منطقة أمنية لدى الشيعة، ومنطقة عبور مهمّة كما هو واضح في الشكل رقم (4)، ويمثل قضاء الزبير جنوب غرب البصرة إحدى المناطق

في الشكل رقم (4) فهي تتكامل مع حزام بغداد الجنوبي وشمال بابل (السُّني) لتصل إلى عامرية الفلوجة، وبذلك فإنها تعزل الشيعة عن بغداد بالرغم من نسبتهم الكبيرة بداخلها، وتحسم عائدتها للسُّنة إذا ما بقيت دياراً لمحافظة سُنّية، والأهمية الأخرى لها تنبع من كونها محاذية لإيران، وتهدد مستقبل نفوذها على بغداد، ومن ثمّ فديالى تحوز أهمية فائقة في المدرك الإستراتيجي لإيران وحلفائها في العراق⁽¹²⁾.

خط التوتر الآخر الذي سينشأ هو شمال بغداد، فالأخيرة التي تعد قطب الصراع لكل الأطراف، وبالرغم من تعرضها لمحاولة تغيير ديموغرافي طائفي كبير أيام الحرب الأهلية في 2007، إلا أن العاصمة بغداد المختلطة بين السنة والشيعة مسورة بحزام سُنّي كما واضح في الشكل (4)، هذا الحزام السُّني يهدّد مستقبل السيطرة الشيعية على العاصمة، لذا فإن خطاً آخر سينشأ ليخترق ذلك الحزام، وهو بضم قضاءي بلد والدجيل الشيعيين التابعين لمحافظة صلاح الدين إلى بغداد، وهو ما ابتدئت المطالبة بإدراجهما أيضاً على أنهما منطقتان متنازعت عليهما بين بغداد وصلاح الدين، يضاف أيضاً إلى هذا الخط بؤرة توتر أخرى ستنشأ متمثلة بقضاء سامراء السُّني، فهذا القضاء تتبع أهميته من كونه يحوي مرقدين للأمامين علي الهادي والحسن العسكري، وهما الإمامان العاشر والحادي عشر من الأئمة الاثني عشر المقدسين لدى الشيعة الاثني عشرية، الذين يمثلون الغالبية الساحقة لشيعة العراق، والذي أدى تفجير قبّتي مرقديهما في عام 2006 إلى اندلاع حرب أهلية كادت تودي بالبلد، ومن ثمّ فإن

الشكل رقم (5): التوزيع الاثنوغرافي في سوريا



المصدر : Elliott Rousseau, The Construction of Ethnoreligious Identity Groups in Syria: Loyalties and Tensions in the Syrian Civil War, 2014, Bridgewater State University, p11
ترجم الوثيقة وعدل عليها الباحث

السُّني، وبعد بروز تنظيم داعش اندفعت الميليشيات الشيعية تحت غطاء فتوى المرجعية الشيعية العليا فيما عرف بالجهاد الكفائي، لتشكل الحشد الشعبي الذي ضم الكثير من تلك الميليشيات التي اندفعت باتجاه أفضية بلد والدجيل وسامراء، بحجة حماية المقدسات، وحشدت الشارع الشيعي لذلك، كما أنها اندفعت باتجاه قضاء النخيب بعد سقوط أجزاء من محافظة الأنبار بحجة حماية كربلاء، إلا أن تحركها الأبرز والذي كان بمشاركة إيرانية مباشرة تمثل في محافظة ديالى التي تسيطر فيها الميليشيات على أجزاء واسعة بشكل مباشر، فيما يبين حجم الإدراك الشيعي والإيراني لأهمية تلك المناطق، وما يمكن أن تمثله من خطوط صدام مستقبلية.

التي تحمل إمكانية صراع طائفي، فالقضاء ذو الغالبية السُّنية الأصيل تنبع أهميته في كونه بوابة العراق في أنه يفصل شيعية العراق عن الخليج إلا من ممر مائي صغير، ومناطق صحراوية غير مأهولة، كما أنه غني بالنفط، إذ يحتوي على حقلين يصنفان على أنهما (حقول فوق العملاقة)، وهما حقل الرميلة وحقل الزبير، ولهذا السبب يتعرض هذا القضاء لحمولات تغيير ديموغرافية كبيرة، من ذلك تهجير عشيرة السعدون الممنهج، وكذلك التهجير الطائفي في 2007⁽¹⁴⁾.

يأتي التفاعل الشيعي مع هذه الحزُم مبكراً، إذ اضطلعت الميليشيات الشيعية في تنفيذ عمليات تطهير منظم لمناطق جنوب ديالى السُّنية، وذلك من أجل فصل ديالى عن حزام بغداد الجنوبي وشمال بابل

التي تسيطر عليها الحكومة العلوية في الغرب، والمناطق التي يسيطر عليها السنة في الشرق، والكردي في الشمال، لكن ولسوء الطالع فإنه لا الاتجاهات المذهبية ولا القومية ولا حتى الدينية منظمّة، فسوريا لوحدة فسيفساء

ثانياً: سوريا

إن الصراع الذي اشتعل خلال السنوات الأربع الأخيرة، بين النظام وقوى المعارضة الساعية إلى إسقاطه، وما رافقه من تفاعل إقليمي ودولي أحال البلد ركاًماً، ومزّق النسيج الاجتماعي فيه. وقد تطور الأمر على نحو مأساوي، إذ لا يمكن لفئة أن تهزم الفئات الأخرى، وهذا لن يفتح الطريق أمام التوصل إلى تسوية سياسية، فحتى سقوط الأسد لن ينهي الصراع، إذ يمكن لجميع الأطراف الاستمرار في القتال، ومن المرجح أن يفعلوا ذلك لتحقيق غاياتهم الخاصة، فما بدأ على شكل معارضة ضد الأسد تحوّل بشكل مدروس من النظام إلى حرب طائفية وجودية، وليس هناك من فئة تعتقد أن بإمكانها البقاء في سورية بقيادة أعدائها، لذا فإن ذلك صار يعطي انطباعاً أن سوريا نفسها لا يمكنها البقاء بجغرافيتها الحالية⁽¹⁵⁾.

هذا التفاعل الكبير مع الصراع في سوريا أفرز واقعاً متمثلاً في تحول مناطق النفوذ إلى دويلات أمراً واقعاً، ومن المرجح أن يستمر ذلك مستقبلاً مع انسداد أفق حل الصراع هناك، من ذلك إقامة دويلة كردية في شمال شرق البلاد، ودويلة (شيعية علوية) تسيطر على الساحل السوري المطل على البحر المتوسط وعلى كل من حمص وحماة أو أجزاء منها، ودولة سنية تسيطر على الرقة ودير الزور وحلب وجنوب البلاد، ولا يستبعد إقامة دويلة درزية جنوب شرق سوريا مستقبلاً⁽¹⁶⁾.

وقد بات من المؤكد أن إطالة أمد الصراع سيؤدي في النهاية إلى بلقنة سوريا، بين المناطق

بات من المؤكد أن إطالة أمد الصراع سيؤدي في النهاية إلى بلقنة سوريا، بين المناطق التي تسيطر عليها الحكومة العلوية في الغرب، والمناطق التي يسيطر عليها السنة في الشرق، والكردي في الشمال

اجتماعية أكبر بكثير من الحدود أو الجبهات المتحولة، وهذا يعني أنه ستكون هناك حاجة ملحة إلى الجماعات والأطراف المختلفة إلى التطهير العرقي لخلق جيوب ذات توجه محدد بغية إعادة رسم خريطة البلد، وعلى نحو يعني أن هناك مزيداً من الثأر واستمراراً للصراع بأدوات وغايات مختلفة⁽¹⁷⁾.

1 - خط الصدام القومي والطائفي:

إن أول الخطوط التي تحمل احتمالية نشوب الصراع القومي في سوريا بين العرب والكردي هو أن حلم الكرد في تحقيق الحكم الذاتي أو الانفصال، وكما هو مبين في الشكل رقم (5) سيصطدم بكتلة بشرية وجغرافية كبيرة تحول بين اتصال مواطن وجود الكرد في سوريا، ويتضح كذلك من الشكل صعوبة ربط المناطق الكردية في قامشلو وديريك شمال شرق سوريا بالمناطق الكردية في كوباني وعفرين شمال غرب البلاد، هذه الكتلة يقطنها العرب السنة، ومن ثم فإن هذا الربط

الزراعة وهطول الأمطار، على عكس الشرق الذي يبدو صحراويًا، لذلك فإن صراعًا طائفيًا سينشب بدافع الانتقام إذا ما استقل العلويون أو فكروا في حكم مناطقهم وعلى نحو واسع⁽¹⁹⁾.

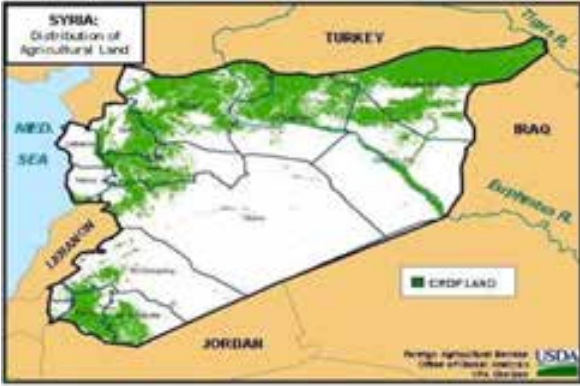
2- وضع مناطق الأقليات:

يدخل إلى نسيج الأزمة السورية المعقد والمتشابك وضع الأقليات واحتمال انخراطها في الصراع في سوريا، فوفقًا لتقديرات أوردتها الـ CIA فإن الأقليات في سوريا تتوزع على الشكل الآتي: 13% شيعة وعلويون وإسماعيليون، و10% مسيحيون بمختلف طوائفهم، و3% دروز، مقابل 74% من المسلمين السُّنة⁽²⁰⁾. بعيدًا عن الأقلية الشيعية والعلوية التي انخرطت بشكل رئيس في الصراع، تجدد الأقليتين الدرزية والمسيحية نفسها في وضع سلبي للغاية من الأحداث التي تشهدها البلاد وتحدد مصيرهما، بسبب اختراق الثورة في سوريا، وبروز التيار المتطرف لدى المعارضة الذي قد يشكل تهديدًا وجوديًا لها، ودليلاً على ذلك التهديد ما قيل عن جبهة النصرة من أنها قتلت 23 درزيًا في إحدى قرى إدلب، وقد استغل نظام الأسد ذلك، فأظهر نفسه في موضع الدفاع عنها منذ اندلاع الأحداث في سوريا، وفي الوقت الذي لا تجد هذه الأقليات بدءًا من حماية وجودها، فإنها تضع نفسها في موضع المدان بوقوفها إلى جانب النظام رغم عدم مناصرتها لأفعاله ضد الأكثرية السُّنية في البلد، وهذا الحرج الذي يميز وضعها سيضعها أمام تهديد وجودي آخر في الوقت

الذي سيضم مناطق شمال الرقة سيحمل إمكانية حدوث صدام وصرع عربي-كرددي، والسبب الذي سيزيد من فرص اندلاع النزاع بالإضافة إلى تركيبها القومية هو خصوبة أراضيها الزراعية، بالمقارنة مع بقية مناطق السنة في سوريا، إضافة إلى أنها تعدّ منفذًا للسنة في سوريا نحو تركيا، ومن دونه سيجد السنة أنفسهم محاصرين من الاتصال بالعالم الخارجي إلا مع العراق، كما أن معارك تل أبيص والاتهامات التي وُجّهت إلى حماية الوحدة الشعبية YPK وPYD بتهجير العرب من ذلك الخط يعطي المثال للحالة التي يمكن أن يكون عليها وضع تلك المناطق بعد محاولات إعادة التشكيل أو الاستقلال الذاتي للمكونات المختلفة في سوريا⁽¹⁸⁾.

بالإضافة إلى الصراع القومي المحتمل في سوريا، فإن صراعًا طائفيًا يبدو حدوثه أكثر احتمالًا من أي صراع آخر، فقوات النخبة التي تفتك بالمدنيين السوريين من الطائفة العلوية، وقد نجح النظام في إضفاء الصبغة الطائفية على الصراع الدائر في سوريا، ومن المؤكد أن العلويين والشيعية سيفكرون مليًا في حماية أنفسهم من خلال الاستقلال، أو حكم دويلة في مناطق الساحل التي يقطنونها حتى لو انهيار نظام بشار الأسد، وبدافع الانتقام سيتجه السنة في سوريا لضم الساحل وإفشال الدولة العلوية، لكن هذا ليس السبب الوحيد والرئيس في الصراع الطائفي الذي سيحدث، فالعلويون - كما هو مبين في الشكل رقم (6) - يقطنون المناطق الساحلية التي ستحرم السُّنة في سوريا من الحد المائي، كما أنها توجد في المدن المتطورة وأماكن

الشكل رقم (6) الأراضي الزراعية المستخدمة في سوريا



المصدر: Syria/2c+population+density+map&id=7CD1C1B0A2=1F0A23278E0CFE65CA71DA2FCF4C6A&FORM=IQFRBA

على الحزام الجيوسياسي للمنطقة، ويقع على رأس الخليج العربي، ويتمحور على قلب إمدادات الطاقة الرئيسة في العالم، ويشكل مفتاح المنطقة الجيوسياسي والحيواقتصادي والجيواثني⁽²³⁾. أما سوريا فإنها تتبوأ موقعاً فريداً يؤثر بشكل مباشر في ثلاث دول مهمة، هي: لبنان وفلسطين والعراق، فضلاً عن انفتاحها على الجهة الجنوبية لتركيا، وأهميتها المحورية لإيران⁽²⁴⁾.

وبالإضافة إلى الأهمية الإستراتيجية فإن النسيج الاجتماعي المعقد لهذين البلدين يجعل دول الإقليم تتفاعل بشكل كبير مع الصراعات الدينامية فيها، وتؤثر بشكل مباشر فيها، فبعد الانهيار الذي شهده العراق بعد 2003 تفاعلت دول الإقليم بشكل كبير مع أحداثه الداخلية، كما عززت النزعات الطائفية والقومية فيه، ودخلت الفواعل الإقليمية المختلفة مع حالة الصراع في سوريا بشكل كبير، إلى الدرجة التي تحولت بها سوريا إلى بؤرة استقطاب إقليمي حاد نتيجة

الذي تكون فيه الجغرافيا الوطنية تتمزق على نحو مخيف⁽²¹⁾.

الخيار المفضل الذي يرجح انتهاجه من قبل الأقليات، هو تبنيها خيار إنشاء دويلات خاصة بها كما في حالة الدروز، أو الانضمام إلى مظلة دويلة أقوى كما في حالة المسيحيين⁽²²⁾، وإذا ما قررت تلك الأقليات التحالف مع الأسد والانصواء في دولة العلويين - كما هو واضح في الشكل رقم (7) - فإن ذلك سيجعلهم في تحالف مع العلويين ضد الأكثرية السنية؛ لأن هذه الخريطة ستؤدي إلى قضم محافظة درعا السنية وإغلاقها للطريق الدولي الذي يصل السنة بالأردن، فضلاً عن تعزيز السيطرة العلوية على العاصمة دمشق، وهو خيار لا يبدو محتماً لدى الدروز، وإن كان أكثر احتمالاً مع المسيحيين - أو أن تقوم بإنشاء دويلات خاصة بها، كما هو محتمل بالنسبة للدروز، لكن ذلك أيضاً يخلق مشكلة بالنسبة للأقليات، إذ إنها غير مجموعة في جيوب محددة، ففي حالة الدروز - كما هو واضح في الشكل رقم (4) - يفصل بين الدروز في السويداء - وهي منطقة تركزهم - وفي القنيطرة كتلة سنية، وإذا ما سعى الدروز إلى بناء كيان خاص بهم فإن ذلك سيصطدم بمحافظة درعا السنية، وهو ما سيخلق صداماً محتملاً.

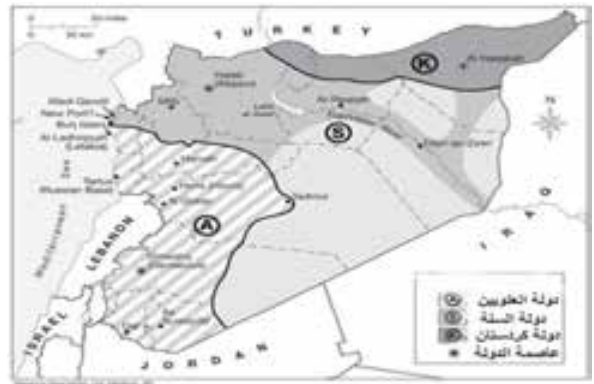
ثالثاً: التداخيات على منطقة الشرق الأوسط

إن تأثير التفاعلات التي تجري في العراق وسوريا على منطقة الشرق الأوسط بشكل عام تأتي من الأهمية الإستراتيجية الفريدة لهذين البلدين في قلب المنطقة، فالعراق (بتموضع)

من شأن بروز خطوط جديدة للصراع في العراق وسوريا أن ينعكس على الحالة الصراعية للبيئة الإقليمية على نطاق أوسع، فالصراع الحالي في المنطقة أفرز صيغ توازنات وتحالفات إقليمية على أساس طائفي، ومن شأن بروز خطوط جديدة تؤمن استدامة الصراع إلى أن يشكل توازنات ديناميكية مضادة تزيد الاستقطاب في المنطقة، وهو ما سيؤجج النعرات الطائفية والقومية في المنطقة، وتمدد مخرجات الصراع الطائفي والقومي لتمسّ العمق الاجتماعي لكثير من دولها، فلبنان واليمن والسعودية والبحرين مناطق رخوة لتمدد الصراع إليها، كما سينعكس على الاستقرار في دول مثل تركيا ومصر والخليج عمومًا، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى هشاشة دول المنطقة وقابلية اختراقها، وأن تكون معرضة للتفاقم على نحو كبير⁽²⁶⁾.

كما أن من شأن تفكك دول مثل العراق وسوريا وبدرجة لاحقة لبنان واليمن وليبيا وبروز خطوط جديدة لاستدامة الصراع أن يؤدي إلى تغيير ميزان القوى في النظام الإقليمي الفرعي في الشرق الأوسط، وتحول دول الهامش إلى قلب المركز في معادلات التوازن في المنطقة، ولكن النتيجة الأبرز هي أن بروز مناطق قابلة للصراع بشكل مستمر سيبتج مناطق دائمة للإخفاق، والتي تكون بيئة خصبة لصناعة التطرف الذي لن يهدد الاستقرار الإقليمي لدول المنطقة فقط بل ويتطور ذلك ليهدد المجتمع الدولي برمته، وهو ما سيعني أن المنطقة ستكون معرضة لتدخل دولي مستمر ينتج أبعادًا على شكل المنطقة العام⁽²⁷⁾، وسيعزز ذلك استمرار النزاع في بؤر التوتر هذه، ويؤدي إلى حركة

الشكل رقم (7): تقسيم مقترح لسوريا يجمع الأقليات المسيحية والدرزية مع العلويين



Eliott Rousseau. The Construction of Ethnoreligious Identity Groups in Syria: Loyalties and Tensions in the Syrian Civil War, 2014, Bridgewater State University, p52

التأثر الإثني والقرب الجغرافي، وهو ما أدخل المنطقة في حالة عدم استقرار على نحو غير مسبوق⁽²⁵⁾.

بالإضافة إلى أن تصاعد المتغير الإثني يؤدي إلى زعزعة الاستقرار في دول الخليج العربية؛ فالكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين دول تمتلك أقليات شيعية كبيرة، باستثناء البحرين التي يمثل الشيعة فيها نسبة كبيرة، إذ إن تلك الأقليات ستتأثر بشكل أكبر بالصراع المتصاعد في المنطقة، ولربما انخرطت في هذه المعادلة، وهو ما سينعكس بشكل كبير على استقرار دول الخليج ويعرضه للعطب، هذا الأمر سيرك تدايعيات مهمة على الطاقة العالمية، لأن الخليج يمثل واحدًا من أهم رئات العالم من حيث مصادر الطاقة، وأي زعزعة فيه سيرك آثارًا سلبية في اقتصاديات كبيرة، قد تترك انعكاسات سلبية على الاقتصاد العالمي بشكل مباشر.

التقسيم للأمر الواقع الحاصل لمناطق النفوذ الإثني في هذين البلدين إنهاءً للصراع، ولكن هذه الدعاوى تتجاهل حقيقة تلك الخطوط الجيواثنية المفجعة بالتنوع الإثني، التي ستشكل أساساً منطقيًا لانطلاق موجات أعنف من الصراع القومي والطائفي والديني إلى حد كبير.

تلك الخطوط الإثنية معززة -وعلى نحو كبير- بعوامل أخرى، كعنصر الزراعة، وعنصر الطاقة، ومميزات الموقع، وخطوط المواصلات... وهو ما يضيف على الصراع أهمية إستراتيجية تمثل مصلحة ثابتة لكل كتلة إثنية، لا يمكنها التنازل عن تلك الخطوط، وهو ما يعني دخول الأطراف الإثنية المختلفة في صراع إثني، سرعان ما ستمتد مخرجاته إلى عموم المنطقة.

كما أن التفاعل الإقليمي الذي سيأخذ طابع الصراع من أجل البقاء سيؤثر بوتيرة متصاعدة في الوضع الديموغرافي للمنطقة وتأثيرها بمخرجات ذلك الصراع بشكل كبير.

4- ليام أندرسن وغاريث ستانسفيلد، أزمة كركوك السياسة الإثنية في النزاع والحلول التوافقية، ترجمة: عبد الإله النعيمي، ط 1، دراسات عراقية، بغداد، 2009، ص 86.

5- خليل إسماعيل محمد، المنطقة المتنازع عليها بين الحاضر الملتهب والمستقبل المجهول، مكتب الفكر والتوعية للاتحاد الوطني الكردستاني، السليمانية، 2007، ص 17.

6- تقرير إنتاج الحنطة والشعير للعام 2013، الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، ص 1.

7- ليليان يعقوب متي، تأثير بحيرة سد الموصل على مناخ مدينة الموصل قبل وبعد الإنشاء، مجلة هندسة

تغيير ديموغرافي عالمي، وحركة هجرة جماعية، وما تشهدها الدول الأوربية من هجرة كثيفة من العراق وسوريا دليل على ذلك. ومن شأن استمرار النزاع أن يؤدي إلى زيادة وتيرة تلك الهجرة التي ستعكس ديموغرافيًا على الدول العربية على وجه التحديد، وهو ما سيشكل تهديدًا لها، ومن ثمّ ستتهرع إلى مواجهته من خلال التدخل المباشر لقطع أسبابه.

الخاتمة:

الصراع الذي يشهده الشرق الأوسط ليس إلا مرحلة متقدمة من مراحل طبوغرافية الدولة التي تعاني إخفاق الاندماج على أساس التقسيم القديم للمنطقة، والذي غذته عوامل متعددة، جعلت العودة به إلى نقطة الصفر أمرًا متوقعًا.

استدامة الصراع الحالي في المنطقة سيضمن بلقنة الشرق الأوسط بحثًا عن الاستقرار، بعد تداعي منظومة الدولة، وإخفاق النظم الحاكمة في أداء وظائفها الطبيعية، ويُعدّ حالتَي العراق وسوريا الأقرب إلى تحقيق ذلك، بيد أن أول ما يُروَّج على نحو واسع هو

الهوامش والمراجع:

1- D-IQ Meeting, European Parliament, IRAQ: The Situation of Ethnic and Religious Minorities, Unrepresented Nations and Peoples Organization, Brussels, 2013/1, p1.

2- مسعود البارزاني، البارزاني والحركة التحررية الكردية، ج 2، ط 2، كاوا للنشر والتوزيع، أربيل، 1997، ص 107.

3- استند الحظر الجوي إلى قرار مجلس الأمن 688 في 5 نيسان 1991، ص ص 29-30.

- Implications and Challenges for the United States, RAND, 2014, p 3.
- Brian Michael Jenkins, Op. cit, p 18 -17
- 18 - قناة الجزيرة الفضائية: <http://www.aljazeera.net/news/1/7/reportsandinterviews/2015>
- 19 - Anthony H. Cordesman, Syria and the Least Bad Option: Dealing with Governance, Economics, and the Human Dimension, Center for Strategic and International Studies CSIS, 2014, P 9
- 20 - Central Intelligence Agency CIA, The World Factbook: <https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/sy.html>
- 21 - Akram Al-Bunni, The Syrian Revolution and Future of Minorities, Arab Reform Initiative, p2
- 22 - Ibid, p 3
- 23 - حسام محمد حسن بوتاني، المصدر السابق، ص 121.
- 24 - المصدر نفسه، ص 122.
- 25 - مروان قبلان، المسألة السورية واستقطاباتها الإقليمية والدولية: دراسة في معادلات القوة والصراع على سورية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2014، ص ص 20-21.
- 26 - Mathew J. Burrows, Middle East 2020: Shaped by or Shaper of Global Trends?, Atlantic Council, Washington, DC, 2014, p p 9-10.
- 27 - David Rothkopf, Operation Charlie Foxtrot: The entire Middle East is at war right now, and the Obama administration's strategic incoherence is aiding and abetting the chaos. Foreign Policy: <http://foreignpolicy.com/2015/03/27/operation-charlie-foxtrot-middle-east-yemen-syria-saudi-obama>
- الرافدين، المجلد 18، الإصدار 4، جامعة الموصل، 2010، ص 23.
- 8 - وزارة النفط العراقية: <https://www.oil.gov.iq/index.php?name=Pages&op=page&pid=29>
- 9 - للمزيد عن النسب للقوميات والإثنيات في المناطق المتنازع عليها مع أخذ محافظة نينوى أنموذجاً ينظر: قصي رياض كنعان، التوزيع الجيوإثنوغرافي في محافظة نينوى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الموصل، كلية الآداب، قسم الاجتماع، 2005، ص ص 125-135.
- 10 - نصّت م/ 140 من دستور جمهورية العراق 2005 على: "ثانياً: المسؤولية الملقاة على السلطة التنفيذية في الحكومة الانتقالية والمنصوص عليها في المادة (58) من قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية تمتد وتستمر إلى السلطة التنفيذية المنتخبة بموجب هذا الدستور على أن تنجز كاملة (التطبيع، الإحصاء، وتنتهي باستفتاء في كركوك والمناطق الأخرى المتنازع عليها لتحديد إرادة مواطنيها) في مدة أقصاها الحادي والثلاثون من شهر كانون الأول سنة ألفين وسبعة".
- 11 - قناة روداو الفضائية: <http://rudaw.net/arabic/kurdistan/101220142>
- 12 - انظر عن الأهمية الإستراتيجية للمنطقة السنية في العراق: حسام محمد حسن بوتاني، تداعيات الثورات العربية على العراق في ضوء التوازن الإستراتيجي الإقليمي الجديد، مجلة قضايا إستراتيجية، العدد 1، مركز الموصل للثقافة والعلوم، ص 133.
- 13 - Anthony H. Cordesman & Sam Khazai, Violence in Iraq: The Growing Risk of Serious Civil Conflict, Center for Strategic and International Studies CSIS, 2013, p p 18-23.
- 14 - مقابلة خاصة أجراها الباحث مع نائب عن البصرة (فضّل عدم الكشف عن اسمه)، مجلس النواب العراقي، بغداد، 2014/4/9.
- 15 - Brian Michael Jenkins, The Dynamics of Syria's Civil War, RAND, 2014, p 12
- 16 - Andrew M. Liepman & (Other), Alternative Futures for Syria Regional